

مجموعة قصص الأنبياء



بإشراف
مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ رَافِقٍ

ابنة عمران

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف



هُنَاكَ فِي جِبَالِ حَبْرُونَ ، قُرْبَ مَدِينَةِ أُورُشَلِيمَ فِي
فِلَسْطِينَ ، كَانَ يَسْكُنُ عِمْرَانُ بْنُ مَائَانَ فِي مَنْزِلٍ صَغِيرٍ
مِنَ الْمَنَازِلِ الْمُتَنَازِرَةِ عَلَى سُفُوحِ هَذِهِ الْجِبَالِ ؛ وَعِمْرَانُ هَذَا
مِنْ أَشْرَافِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَحْبَارِهِمْ ، وَمِنْ سُلَالَةِ نَبِيِّهِمْ
دَاوُدَ ، وَقَدْ نَزَلُوا لَهُ عَنْ شَرَفِ سِدَانَةِ مَعْبَدِهِمْ وَخِدْمَتِهِ .
كَانَتْ زَوْجَتُهُ حِنَّةً أُمْرَأَةً صَالِحَةً ، فَعَاشَا مَعًا فِي هَذَا الْبَيْتِ
وَحِيدَيْنِ ، لِأَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ لَهُمَا نِعْمَةً أَخْلَفَ ، وَوَهَبَ لَهُمَا نِعْمَةً
الصَّبْرِ وَالْإِيمَانَ ، فَظَلَّا كَذَلِكَ حَتَّى كَبُرَا وَشَاخَا .

كَانَتْ حِنَّةٌ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسَةً تَحْتَ شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ ، فَرَأَتْ
عُصْفُورًا يَزُقُّ فِرَاحَهُ ، فَتَحَرَّكَتْ فِي قَلْبِهَا عَاطِفَةُ الْأُمُومَةِ ،
وَاشْتَهَتْ أَنْ يَكُونَ لَهَا وَلَدٌ ، فَصَارَتْ تُفَكِّرُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي
أَخْلَفٍ وَتَحْلُمُ بِهِ ؛ فَإِذَا خَلَتْ بِأَخْتِهَا الْيَصَابَاتِ ، زَوْجَةِ
زَكَرِيَّا بْنِ بَرُخِيَا ، حَدَّثَهَا بِذَلِكَ ، وَكَانَتْ أَخْتُهَا الْيَصَابَاتِ

عَاقِرًا مِثْلَهَا ، وَعَاوِدَهَا مِثْلُ هَذَا الْحَيْنِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ ،
ثُمَّ وَطَّنتْ نَفْسَهَا عَلَى الرِّضَا ، وَالصَّبْرِ عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ .

رَأَتْ أَلْيَصَابَاتُ أُخْتَهَا مَا زَالَتْ تَعِيشُ فِي هَذَا الْأَمَلِ ،
فَأَشْفَقَتْ عَلَيْهَا ، وَظَلَّتْ تُوَاسِيهَا ، وَتَبَثُّ فِي نَفْسِهَا الصَّبْرَ
وَالرِّضَا بِقَضَاءِ اللَّهِ ، وَتُحَاوِلُ أَنْ تُبَيِّنَ لَهَا أَسْتِحَالَةَ تَحْقِيقِ
أَمَلِهَا هَذَا ، وَلَكِنْ أُخْتَهَا حَنَّةٌ زَوْجَةُ عِمْرَانَ كَانَتْ تَشْعُرُ
بِقُرْبِ تَحْقِيقِ هَذَا الْأَمَلِ ، وَكَأَنَّهَا تَقَابَلَتْ فِي نَفْسِهَا نُورَ
الرَّجَاءِ ، فَيُعَاوِدُهَا الْحَيْنُ ، وَتَقْوَى الرَّغْبَةُ ، فَإِذَا هِيَ تَتَجَّهُ
إِلَى اللَّهِ بِالْدُّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ ، لِكَيْ يَهَبَ لَهَا غُلَامًا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُهَا ،
وَيَكُونُ خَلِيفَةً أَيْبِهِ فِي سِدَانَةِ بَيْتِ عِبَادَتِهِمْ .

اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهَا ، فَحَمَلَتْ ، وَشَعَرَتْ بِالْجَيْنِ يَتَحَرَّكُ
فِي بَطْنِهَا ، فَطَابَتْ نَفْسُهَا ، وَعَظُمَتْ ثِقَتُهَا بِاللَّهِ ، فَذَهَبَتْ إِلَى
بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَوَقَّتْ فِي الْمِحْرَابِ وَقَلْبُهَا يَفِيضُ بِالشُّكْرِ
وَالِإِيمَانِ ، وَقَالَتْ : رَبِّ ؛ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ،
فَتَقَبَّلْ مِنِّي ، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

لَمَّا انْتَهَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ مِنْ كَلَامِهَا ، غَمَرَهَا فَيْضٌ مِنَ
النُّورِ ، فَظَلَّتْ وَاقِفَةً فِي مَكَانِهَا ، وَقَدْ انْتَابَهَا ذُحُولٌ ، فَطَالَ
وُقُوفُهَا ، وَشَكَّ النَّاسُ فِي أَمْرِهَا ، فَكَانَ الزَّائِرُونَ وَالزَّائِرَاتُ
يَدُورُونَ حَوْلَهَا ، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْهَا ، وَهِيَ لَا تُحِسُّ بِوُجُودِهِمْ ،
وَلَا تَشْعُرُ بِمَا يَجْرِي حَوْلَهَا ، ثُمَّ أَفَاقَتْ ، بَعْدَ وَقْتٍ قَعَادَتْ إِلَى
بَيْتِهَا ، وَأَخْبَرَتْ زَوْجَهَا عِمْرَانَ بِحَمْلِهَا وَنَذَرِهَا ، فَسَرَّ بِذَلِكَ
سُرُورًا عَظِيمًا ، لِأَنَّ اللَّهَ وَصَلَ ذُرِّيَّتَهُ مِنْ بَعْدِهِ فِي خِدْمَةِ الْبَيْتِ
الْمُقَدَّسِ ، وَوَقَفَ رَافِعًا يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَدْعُو اللَّهَ وَيَشْكُرُ لَهُ .
مَاتَ عِمْرَانُ قَبْلَ أَنْ تَلِدَ زَوْجَتُهُ ، فَحَزَنَتْ عَلَيْهِ حُزْنٌ
الصَّابِرَاتِ ، وَعَاشَتْ وَحِيدَةً لَا أُنْسَ لَهَا إِلَّا جَنِينُهَا الَّذِي
يَتَحَرَّكُ فِي بَطْنِهَا بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ .

جَاءَهَا الْمَخَاضُ فَوَضَعَتْ ، وَإِذَا الْوَلِيدَةُ أُنْثَى ، فَخَابَ
الْأَمَلُ ؛ وَكَانَتْ الصَّدْمَةُ عَنِيفَةً ، لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَعْتَادُوا
أَنْ يَهْبُوا لِخِدْمَةِ الْبَيْتِ إِلَّا ذُكُورًا ، وَكَانَ رِجَالُ الدِّينِ
وَسِدْنَةُ الْبَيْتِ لَا يَقْبَلُونَ الْبَنَاتَ إِذَا وَهَبَهَا أَهْلُهَا ،

حَزَنَتْ حِنَّةً لِأَنَّ ذُرِّيَّةَ عِمْرَانَ لَمْ يَمُدَّ لَهَا مَكَانٌ فِي سِدَانَةِ
الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَقَدْ كَانَتْ قُوَّةَ الْأَمَلِ فِي أَنْ يَكُونَ
الْمَوْلُودُ ذَكَرًا ، فَظَلَّتْ حَائِزَةً تُفَكِّرُ فِي نَذْرِهَا الَّذِي لَمْ
تَسْتَطِيعِ الْوَفَاءَ بِهِ .

يَنِمَّا كَانَتْ حَائِزَةً يَائِسَةً رَفَعَتْ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَتْ :
رَبِّ ! إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ ، وَلَيْسَ
الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ، وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ
وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ .

قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ ذَلِكَ ، فَتَجَلَّى لَهَا النُّورُ الَّذِي رَأَتْهُ يَوْمَ
نَذَرَتْهَا فِي الْمِحْرَابِ ، وَأَفْهَمَهَا اللَّهُ أَنَّهُ قَدْ تَقَبَّلَ مَوْلُودَتَهَا
بِقَبُولٍ حَسَنٍ ، وَكَأَنَّهَا تَفْهَمُ بِهَا أَنَّ تَقَى بِنَذْرِهَا .

كَانَتْ فَرْحَتَهَا عَظِيمَةً حِينَمَا لَفَّتْهَا وَذَهَبَتْ بِهَا إِلَى بَيْتِ
الْمُقَدَّسِ ، فَوَجَدَتْ تَرْحِيبًا مِنَ الْأَخْبَارِ ، فَقَالَتْ لَهُمْ :

دُونَكُمْ هَذِهِ الْمُنْذُورَةُ - مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ ، لَقَدْ صَارَتْ
أُخْتُكُمْ فِي خِدْمَةِ الْبَيْتِ وَسِدَانَتِهِ .

لَمْ يَمْتَرِضْ عَلَيْهَا مِنْهُمْ مُعْتَرِضٌ، فَتَرَكَتْهَا حِنَّةً فِي رِعَايَتِهِمْ،
وَعَادَتْ إِلَى يَنْبِتِهَا رَاضِيَةً مُطْمَئِنَّةً، بَعْدَ أَنْ وَفَتْ بِنَدْرِهَا،
وَأَدَّتْ الْأَمَانَةَ إِلَى أَهْلِهَا.

أَمَّا أَجْبَارُ الْبَيْتِ فَقَدْ اخْتَلَفُوا فِي أَمْرِهَا، وَحَاوَلَ كُلُّ
مِنْهُمْ أَنْ يَحْطِيَ بِشَرَفِ تَرْبِيَّتِهَا وَكِفَالَتِهَا.

تَقَدَّمَ زَكَرِيَّا بْنُ بَرَخِيَا وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي أَوْلَى بِهَا، فَزَوَّجَتِي
خَالَتَهَا، وَهِيَ أَحَقُّ مِنْكُمْ جَمِيعًا بِكِفَالَتِهَا.

قَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: لَقَدْ أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمُنْذُورَةُ مِلْكًا
لِلْبَيْتِ، فَلْنَقْتَرِعْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهَا، وَالْخَيْرُ فِيمَا يَخْتَارُهُ اللَّهُ.

اتَّفَقَ الْأَجْبَارُ عَلَى ذَلِكَ، وَذَهَبُوا إِلَى نَهْرِ الْأَرْدُنِّ، وَكَانَتْ
الْقُرْعَةُ أَنْ يُلْقُوا فِي النِّهْرِ أَقْلَامَهُمُ الَّتِي يَكْتُبُونَ بِهَا التَّوْرَةَ،
وَالْفَائِزُ هُوَ صَاحِبُ الْقَلَمِ الَّذِي يَطْفُو عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ.

فَعَلُوا ذَلِكَ، فَרَسَبَتِ الْأَقْلَامُ جَمِيعًا إِلَّا قَلَمَ زَكَرِيَّا، وَكَرَّرُوا
ذَلِكَ الْعَمَلَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ قَلَمُ زَكَرِيَّا
يَطْفُو، وَتَرَسَّبَ أَقْلَامُهُمْ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَإِذْ قَالَ الْمَلَأِكَةُ بَسْمُهُ إِنَّ اللَّهَ
أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ٤٢﴾ يَمْزِجُ
أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ
الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ
يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ٤٤﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران - الآيات من ٤٢ - ٤٤]

أَخَذَ زَكَرِيَّا مَرْيَمَ إِلَى دَارِهِ ، وَاسْتَأْجَرَ لَهَا الْمَرَاضِعَ ،
وَعُنِيَتْ بِهَا زَوْجَتُهُ أَلْيَصَابَاتُ ، فَعَطَفَتْ عَلَيْهَا عَطْفَ الْأُمِّ ،
وَبَدَّلَتْ فِي رِعَايَتِهَا كُلَّ مَجْهُودٍ حَتَّى نَمَتْ ، وَصَارَتْ طِفْلاً
تَسْعَى عَلَى قَدَمَيْهَا ، وَحَانَ وَقْتُ ذَهَابِهَا إِلَى الْبَيْتِ الَّذِي نَذَرَتْ
لَهُ ، فَانْتَزَعَتْ مِنْ مَنْزِلِ خَالَتِهَا ، فَكَانَ حُزْنُهَا عَلَيْهَا شَدِيداً ،
وَلَكِنَّهَا صَبَرَتْ ، وَالصَّبْرُ عَزَاءُ الْمُؤْمِنَاتِ .

عَاشَتْ مَرْيَمُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَكَانَتْ تَجْلِسُ كُلَّ
يَوْمٍ فِي الْمِحْرَابِ تَحْفَظُ التَّوْرَةَ ، وَتَتَعَلَّمُ فُرُوضَ الدِّينِ ،
وَلَقَدْ أَحَسَّ الْأَخْبَارُ وَعُلَمَاءُ الدِّينِ نَحْوَهَا هَيْبَةً وَوَقَاراً مُنْذُ
الصَّغَرِ ، لَمَّا بَدَأَ عَلَيْهَا مِنَ الْوَرَعِ وَالصَّلَاحِ .

ظَلَّتْ مَرْيَمُ هَكَذَا تَمُرُّ عَلَيْهَا الْأَيَّامُ وَتَمْضِي الشُّهُورُ
وَالسَّنُونَ ، وَزَكَرِيَّا ابْنُ بَرَخِيَا يَرْعَاهَا وَيُزَوِّرُهَا مِنْ حِينٍ
لِحِينٍ ، وَيُخْضِرُ لَهَا مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ كُسُوءٍ وَطَعَامٍ ، وَهِيَ

مُنْصَرَفَةً عَنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَلَهْوَها مُقْبِلَةً عَلَى التَّوَرَّاقِ تَطَالِعُهَا ،
وَتَتَعَلَّمُ مَا بِهَا ، وَتَعْمَلُ بِمَا فِيهَا .

تَخَطَّتْ مَرْيَمُ سِنَّ الْعَاشِرَةِ ، وَتَحَدَّثَ الْأَخْبَارُ بِصَلَاحِهَا
وَتَقَوَّاهَا ، أَمَّا زَكَرِيَّا فَقَدْ كَانَ يَرَى عِنْدَهَا مَا يُحِيرُهُ وَيُبْلِلُ
أَفْكَارَهُ :

كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ؟
قَالَ : يَا مَرْيَمُ ؛ أَنَّى لَكَ هَذَا ؟ !

قَالَتْ : هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
حِسَابٍ .

اخْتَارَ زَكَرِيَّا فِي أَمْرِهَا ، وَمَالَ إِلَى تَصَدِّيقِهَا ، فَمَا عَهَدَ
عَلَيْهَا كَذِبًا ، وَإِنَّهُ لَيَجِدُ عِنْدَهَا فَوَاحِشَ الصَّيْفِ فِي الشِّتَاءِ ،
وَفَوَاحِشَ الشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ ، وَمَا كَانَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ
يُمِدَّهَا بِهَذِهِ الْفَوَاحِشِ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا ، وَبَعْدَ كَثْرَةِ تَفْكِيرِ
وَتَقْدِيرِ أَلْهَمَةِ اللَّهِ صِدْقَهَا وَقَدَّاسَتَهَا ، وَزَادَهُ ذَلِكَ حُبًّا
وَاخْتِرَامًا لَهَا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿...فَقَبَّلَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنٍ وَأُتْبِنَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا
رُكُونًا كُلًّا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْخَرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ
يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
يُغَيِّرُ حِسَابِ ﴿٣٧﴾﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران - الآية ٣٧]

خَرَجَ زَكَرِيَّا مِنْ حُجْرَةٍ مَرِيْمَ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَقَدْ
رَأَى عِنْدَهَا مَا رَأَى مِنْ رِزْقِ اللَّهِ الْوَهَّابِ، فَتَمَنَّى أَنْ يَهَبَ لَهُ
اللَّهُ وَلَدًا فِي صَلَاحِهَا وَتَقْوَاهَا سَكَا وَهَبَهَا لِأَبَوَيْهَا بَعْدَ يَأْسٍ
وَقُنُوطٍ، فَذَهَبَ إِلَى الْمِحْرَابِ وَقَدْ تَمَلَّكَهُ رَغْبَةٌ قَوِيَّةٌ فِي
الْإِلْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ، قَالَ :

رَبِّ : هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ، إِنَّكَ سَمِيعُ
الدُّعَاءِ .

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ ، وَسَمِعَهَا
تَقُولُ لَهُ :

إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى ، مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ، وَسَيِّدًا
وَحْصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ .

قَالَ : رَبِّ : أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ، وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ ،
وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ ؟ !!

قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ : كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ .

قَالَ : رَبِّ : اجْعَلْ لِي آيَةً أَعْرِفُ بِهَا وَقْتَ وِلَادَتِهِ .

قَالَتِ الْمَلَأِئِكَةُ : إِنَّ الْعَلَامَةَ أَنَّ يَحْبِسَ اللَّهُ لِسَانَكَ ثَلَاثَةَ
 أَيَّامٍ ، فَلَا تَسْتَطِيعُ التَّفَاهُمَ مَعَ النَّاسِ إِلَّا بِالْإِشَارَةِ .
 رَجَعَ زَكَرِيَّا إِلَى زَوْجَتِهِ ، وَأَخْبَرَهَا بِدُعَائِهِ ، وَبِمَا كَانَ مِنْ
 إِجَابَةِ الْمَلَأِئِكَةِ لَهُ ، فَاسْتَبَشَّرَتْ خَيْرًا ، وَقَالَتْ :
 لَعَلَّ اللَّهَ الَّذِي رَزَقَ أُخْتِي بِمَرْيَمَ يَرْزُقُنِي بِمِثْلِهَا .
 لَمْ يَمُضِ شَهْرَانِ حَتَّى تَحَقَّقَتِ النُّبُوءَةُ ، وَحَمَلَتِ الْيَصَابَاتُ .



كَانَ الْيَهُودُ يَعْتَبِرُونَ دَمَ الْخَيْضِ نَجَسًا ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَى
النِّسَاءِ وَالْفَتَيَاتِ الْبَالِغَاتِ الْإِقَامَةَ بِالْمَسْجِدِ ، فَلَمَّا اكْتَمَلَتْ
أَنْوَتُهُ مَرِيَمَ الْعَذْرَاءِ اجْتَمَعَ الْأَخْبَارُ لِلتَّشَاوُرِ بِشَأْنِهَا ، وَقَرَّرُوا أَنَّ
مُدَّةَ النَّذْرِ قَدْ انْتَهَى أَجْلُهَا ، وَأَنَّهُ قَدْ حَانَ تَسْرِيحُهَا ، لِتَخْرُجَ
إِلَى أَدَاءِ رِسَالَتِهَا فِي الْحَيَاةِ ، وَكَانَ ابْنُ عَمِّهَا يُوسُفُ النَّجَّارُ مِنْ
أَوْلِيكَ الْأَخْبَارِ الَّذِينَ حَضَرُوا هَذَا الْاجْتِمَاعَ ، فَلَمَّا انْتَهَى
الْمَجْلِسُ ذَهَبَ إِلَى زَكْرِيَّا لِيُحَادِثَهُ فِي أَمْرِ مَرِيَمَ بَعْدَ هَذَا
الْقَرَارِ .

قَالَ يُوسُفُ : أَرَى أَنَّ تَضَمُّنَهَا إِلَى يَتِّكَ فِي رِعَايَةِ خَالَتِهَا ،
فَهِىَ رَيْبُتُهَا وَأَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهَا .
قَالَ زَكْرِيَّا : إِنَّ ذَلِكَ أَحَبُّ أُمْنِيَّةٍ لِي وَلِزَوْجَتِي ، وَلَكِنِّي
بَلَغْتُ الشَّيْخُوخَةَ ، فَشَابَ رَأْسِي ، وَوَهَنَ عَظْمِي ، فَمَنْ يَرْعَاهَا
بَعْدِي ؟

قَالَ يُوسُفُ : يَرَعَاهَا خَالِقُهَا ، وَرُبَّمَا هِيََا زَوْجًا صَالِحًا
يَضُمُّهَا إِلَى يَنْتِه ، فَهِيَ مِنْ سُلَالَةٍ طَاهِرَةٍ مُبَارَكَةٍ
قَالَ زَكَرِيَّا : لَا أَرَى أَصْلَحَ لَهَا مِنْكَ ، فَأَنْتَ ابْنُ عَمَّتِهَا ؛
وَأَحَقُّ النَّاسِ بِهَا ، وَلَقَدْ نَشَأْتُمَا مَعًا عَلَى الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى ،
فَاتَّفَقْتَ مَشَارِبُكُمَا فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَسِدَانَةِ الْبَيْتِ .
قَالَ يُوسُفُ : إِنَّهُ لَشَرَفٌ عَظِيمٌ لِي ، وَلَكِنَّهَا مُتَّجِهَةٌ إِلَى
اللَّهِ ، وَلَيْسَ فِي صَدْرِهَا مَكَانٌ لِغَيْرِ الْعِبَادَةِ .
قَالَ زَكَرِيَّا : سَأَقْنِعُهَا أَنْ تَذْهَبَ مَعَكَ إِلَى النَّاصِرَةِ ،
لِتَعِيشَ فِي كَنْفِ عَمَّتِكَ وَعِنَايَتِهَا .

قَالَ يُوسُفُ : إِنْ وَافَقْتَ عَلَى ذَلِكَ فَسَوْفَ أَهْبُ نَفْسِي
لِخِدْمَتِهَا وَلَا أَطْمَعُ إِلَّا فِي رِضَاءِ اللَّهِ عَنِّي يَا كَرَامِيَا .
قَبِلَتْ مَرْيَمُ السَّفَرَ مَعَ ابْنِ عَمَّتِهَا يُوسُفَ التَّجَارِ إِلَى الْجَلِيلِ
فِي الشَّمَالِ ، لِيُتَقِيمَ مَعَ عَمَّتِهَا فِي النَّاصِرَةِ ، وَلِتَرُوضَ نَفْسَهَا عَلَى
الزَّوْاجِ الَّذِي تَنْفَرُ مِنْهُ ، وَاسْتَرْطَتْ لِذَلِكَ أَنْ تَبْقَى عِنْدَ عَمَّتِهَا
عِذْرَاءَ عَامًا كَامِلًا ، فَأُجِيبَتْ إِلَى رَغْبَتِهَا ، وَسَافَرَتْ مَعَ ابْنِ عَمَّتِهَا .

وَالآنَ تَبْدَأُ مَشَاهِدُ تِلْكَ الْقِصَّةِ فِي قَرْيَةٍ تَكْتَنِفُهَا جِبَالُ
الْجَلِيلِ ، حَيْثُ يَعْمَلُ يُوسُفُ النَّجَّارُ فِي حَانُوتِهِ ، وَعَلَى مَقَرَبَةٍ
مِنْهُ تَسْكُنُ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ تَقْضِي يَوْمَهَا فِي غَزْلِ الصُّوفِ ،
وَمُسَاعَدَةِ عَمَّتِهَا فِي إِعْدَادِ الطَّعَامِ ، وَجَلْبِ الْمَاءِ ، فَتَخْرُجُ مَعَ
فَتَيَاتِ الْقَرْيَةِ إِلَى يَنْبُوعِ عَذْبٍ لِيَمْلَأَنَّ جِرَارَهُنَّ كُلَّ يَوْمٍ
فِي الصَّبَاحِ .

وَنَحْنُ تَخَيَّلُهَا فِي حَيَاتِهَا الْيَوْمِيَّةِ فَتَاءً وَادِعَةً ، قَدْ اكْتَسَتْ
ثَوْبَ الطُّهْرِ وَالْجَلَالِ ، وَتَتَصَوَّرُهَا أَيْضًا بِوَجْهِ رَائِقٍ جَمِيلٍ ،
يَتَفَقُّ مَعَ جَمَالِ نَفْسِهَا ، وَصَفَاءِ قَلْبِهَا .

تَأَخَّرَتْ مَرْيَمُ يَوْمًا عَنْ زَمِيلَاتِهَا ، فَلَمَّا ذَهَبَتْ إِلَى الْيَنْبُوعِ
لِتَمْلَأَ الْجِرَّةَ وَجَدَتْ نَفْسَهَا وَحِيدَةً ، وَأَحْسَتْ وَخْشَةً وَرَهْبَةً
وَاضْطَرَبَ جَسْمُهَا فَجْأَةً ، فَشَعَرَتْ بِالْخَوْفِ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى الْمَاءِ
مُسْرَعَةً تُرَدِّدُ أَذْغِيَاتِ الصَّلَاةِ ، وَإِذَا شَابٌ قَوِيٌّ ، وَسِيمٌ
الطَّلَعِ ، جَمِيلُ الْهَيْئَةِ ، يَنْظُرُ إِلَيْهَا ، كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْأَرْضِ .
ذَعِرَتْ الْفَتَاءُ ، وَتَوَقَّعَتْ شَرًّا يَنْزِلُ بِهَا فَقَالَتْ :

إِنِّي أَعوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا .
 ذَلِكَ الشَّابُّ كَانَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَلَمَّا رَأَى خَوْفَهَا
 وَانزعاجها قَالَ :

إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِأَهَبَ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا .
 اخْتَارَتْ مَرْيَمُ فِي أَمْرِهَا ، وَخَافَتْ أَنْ يَكُونَ بَشَرًا أَرَادَ
 بِهَا سُوءًا ، وَأَرَادَتْ الْهَرَبَ ، فَهَبَطَ عَلَيْهَا إِلَهَامٌ مِنَ اللَّهِ ،
 وَإِذَا هِيَ وَاقِفَةٌ أَمَامَهُ فِي ثِيَابٍ وَاطْمِئْنَانٍ ، ثُمَّ رَأَتْ صَفًّا مِنْ
 الْمَلَائِكَةِ عَنْ يَمِينِهَا ، وَصَفًّا عَنْ شِمَالِهَا ، فَهَدَّاتُ نَفْسَهَا
 وَذَهَبَ خَوْفُهَا .
 قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ :

يَا مَرْيَمُ ؛ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ، اسْمُهُ الْمَسِيحُ
 عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَمِنْ الْمُقَرَّرِينَ .
 قَالَتْ : رَبِّ ؛ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ؟
 قَالَ جِبْرِيلُ : كَذَلِكَ اللَّهُ يُخَلِّقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا
 فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ؛ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَالْتَوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ، وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ .
 تَلَقَّتْ مَرْيَمُ هَذَا النَّبَأَ الْعَظِيمَ بِخَوْفٍ وَفَرَحٍ . إِنَّ الْمَلَائِكَةَ
 يُبَشِّرُونَهَا بِوَلَدٍ يَكُونُ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ ، وَرَسُولًا إِلَى
 بَنِي إِسْرَائِيلَ ، يَا لَهُ مِنْ شَرَفٍ عَظِيمٍ !! .
 رَفَعَتْ رَأْسَهَا أَمَامَ جِبْرِيلَ وَقَالَتْ :
 هَإِنذًا أَمَةٌ لِلَّهِ . لَيْكُنْ مَا يُرِيدُ اللَّهُ .
 تَقَدَّمَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَفَحَّحَ فِي جَيْبِهَا ، ثُمَّ اخْتَنَى
 عَنْهَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ ، بَعْدَ أَنْ وَهَبَهَا وَدِيعَةَ الْقُدُّوسِ الْأَعْلَى .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذْ قَالَ

الْمَلَكُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشْرِكَ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْأَسْمِ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾
وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ
أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴿

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران - الآيات من ٤٥ - ٤٨]

وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ تَخَيَّلُ الْعَذْرَاءُ قَدْ أُحِيطَتْ بِسِرِّ
هَائِلٍ ، لَمْ تَعْهَدْ امْرَأَةً سِوَاهَا مِنْ قَبْلُ ، فَالْجِنُّ يَتَحَرَّكُ
فِي بَطْنِهَا ، وَأَمْرُهَا صَائِرٌ إِلَى الْفُضِيحَةِ ، وَهِيَ الْعَذْرَاءُ الصَّالِحَةُ
الَّتِي عَاشَتْ عُمُرَهَا طَاهِرَةً تَقِيَّةً .

لَمْ تُطِقْ مَرْيَمُ الْبَقَاءَ بِحَالَتِهَا هَذِهِ فِي النَّاصِرَةِ ، فَاسْرَعَتْ
بِالْعُودَةِ إِلَى جِبَالِ حَبْرُونَ ، لَتَكْشِفَ سِرَّهَا إِلَى امْرَأَةٍ مِثْلِهَا ،
تَثِقُ فِيهَا ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا ؛ وَتَلَاقَتْ مَرْيَمُ مَعَ خَالَتِهَا
أَلْيَصَابَاتٍ ، فَأَلْقَتْ إِلَيْهَا بِسِرِّهَا الرَّهيبِ .

كَانَتْ أَلْيَصَابَاتُ زَوْجَةً زَكْرِيَّا قَدْ حَمَلَتْ هِيَ أَيْضًا ، بَعْدَ
أَنْ اسْتَجَابَ اللَّهُ لِدُعَائِ زَوْجِهَا ، فَرَوَتْ كُلُّ مِنْهُمَا قِصَّتَهَا ،
وَتَحَدَّثَتَا بِغَرَابَةِ حَمْلِهِمَا ، وَمَكْثَتَا مَعًا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ فِي هَذَا
الْبَيْتِ الْهَادِي عَلَى سَفْحِ الْجَبَلِ .

وَفِي لَيْلَةٍ كَانَتَا نَائِمَتَيْنِ عَلَى سَرِيرٍ وَاحِدٍ ، فَاسْتَيْقَظَتَا عَلَى

نِدَاءِ سَمَاوِيَّ أَلَهُمَّهَا أَنَّ الطِّفْلَيْنِ سَيَشْتَرِكَانِ مَعًا فِي إِتِمَامِ
الْقَصْدِ الْإِلَهِيِّ ، وَنَزَلَ هَذَا الْخَبْرُ عَلَى قَلْبَيْهِمَا بَرْدًا وَسَلَامًا .
عَادَتِ الْعَذْرَاءُ الْمُبَارَكَةُ إِلَى النَّاصِرَةِ ، وَهِيَ الْفَتَاةُ الْبَاسِمَةُ
الْمُشْرِقَةُ ، فَقَدْ أَصْبَحَتْ تَعِيشُ فِي عَالَمٍ جَدِيدٍ أَكْثَرَ انِّصَالًا
بِاللَّهِ ، تُفَكِّرُ طَوِيلًا بِفَرَجٍ مَمْزُوجٍ بِالْخَوْفِ .

انْتَفَخَتْ بَطْنُهَا ، وَبَدَأَتْ تَفْطِنُ إِلَى الرَّيَّةِ الَّتِي تُحَامِرُ
قُلُوبَ الْمُحِيطِينَ بِهَا ، فَكَانَتْ تُفَكِّرُ فِي ذَلِكَ طَوِيلًا ،
وَأَخِيرًا اسْتَقَرَّ عَزْمُهَا عَلَى أَنْ تَكْشِفَ سِرَّهَا إِلَى ابْنِ عَمِّهَا
يُوسُفَ النَّجَّارِ ، وَكَانَ أَشَدَّ النَّاسِ بَرًّا بِهَا وَحِرْصًا عَلَيْهَا ،
فَارْسَلَتْ لَهُ ، وَأَلْقَتْ إِلَيْهِ بِسِرِّهَا الَّذِي كَانَ حِمْلًا ثَقِيلًا عَلَيْهَا .
وَقَعَ هَذَا الْخَبْرُ عَلَى يُوسُفَ وَقُوعِ الصَّاعِقَةِ ، فَشَكَ فِي أَمْرِهَا ،
وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِعِفَّتِهَا وَطَهَارَتِهَا ، وَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَأَوَى إِلَى
فِرَاشِهِ شَارِدَ الْفِكْرِ مُضْطَرِبَ الْفُؤَادِ ، فَطَارَ النَّوْمُ مِنْ عَيْنَيْهِ ،
وَعَصَرَ الْحُزْنَ قَلْبَهُ .

وَفِي هُدُوءِ اللَّيْلِ هَبَطَ الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ عَلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ

الْمُعَذِّبِ وَالْقَلْبِ الْجَرِيحِ ، وَأَنْبَاءُ الْحَقِيقَةِ الْعُظْمَى ، فَقَامَ مِنْ
 نَوْمِهِ ، وَقَدْ آمَنَ بِحَقِيقَةِ مَرِيَمَ الْعَذْرَاءِ ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهَا فِي مَنْزِلِ
 عَمَّتِهَا لِيَعْتَذِرَ لَهَا عَنْ رَيْبَتِهِ فِيهَا ، ثُمَّ عَرَضَ عَلَيْهَا أَنْ يَضُمَّهَا
 فِي بَيْتِهِ لِيَسْتُرَ أَمْرَهَا ، وَيَحْطَى بِشَرَفِ رِعَايَتِهَا كَمَا يَرْغَى
 الزَّوْجُ زَوْجَتَهُ .

أَذْعَنَتْ مَرِيَمُ لِلْإِلَاحِ عَمَّتِهَا فَقَبِلَتْ هَذَا الْعَرْضَ وَذَهَبَتْ
 إِلَى بَيْتِ يُوسُفَ ، فَأَتَمَّتْ فِيهِ مُدَّةَ الْحَمْلِ .
 لَمَّا صَارَتْ فِي الشَّهْرِ التَّاسِعِ ، وَرَأَى يُوسُفُ سُوءَ حَالَتِهَا ،
 أَشْفَقَ عَلَيْهَا ، وَبَدَلَ الْمُسْتَحِيلِ لِيُخْفِيَ أَمْرَهَا ، وَيَمْنَعَ سُوءَ
 الْقَالَةِ عَنْهَا ، فَقَرَّرَ السَّفَرَ بِهَا لِتَضَعَ مَوْلُودَهَا بَعِيدَةً عَنِ
 النَّاصِرَةِ وَأَهْلِهَا .



صَدَرَ أَمْرُ الْقَيْصَرِ أُغْطِسَ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ الَّتِي انْتَضَمَتْهَا
 مُلْكُهُ الْوَاسِعُ بِحَضَرِ عَدَدِ السُّكَّانِ ، وَكِتَابَةِ أَشْمَائِهِمْ فِي
 سَجَلَاتِ كُلِّ دَوْلَةٍ ، وَهَدَّدَ كُلَّ مَنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ تَدْوِينِ
 اسْمِهِ ، وَأَسْمَاءِ عَائِلَتِهِ بِالْعِقَابِ الشَّدِيدِ .

سَافَرَ النَّاسُ مِنَ الشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ إِلَى أُورُشَلِيمَ ، لِتَدْوِينِ
 أَشْمَائِهِمْ ، فَكَنتَ تَرَى الطَّرِيقَ مُزْدَحِمَةً بِالْمُسَافِرِينَ . مَالَتْ
 الشَّمْسُ إِلَى الْغَرْبِ ، وَظَهَرَتْ جِبَالُ مُوَابَ بِلَوْنِهَا الْقُرْمُزِيِّ ،
 تُشْرِفُ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُمْتَدِّ فِي بَطْنِ الْوَادِي ، حَيْثُ تَقَعُ الْعَيْنُ
 عَلَى رَكَبٍ مِنَ الْمُسَافِرِينَ ، جَاءُوا مِنْ بِلَادِ الْجَلِيلِ فِي الشَّمَالِ ،
 وَقَدْ بَدَأَ عَلَيْهِمْ أَثَرُ التَّعَبِ ، وَأَضْنَاهُمُ السَّفَرُ الطَّوِيلُ .

كَانَ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الْمُسَافِرِينَ ، فَتَاةٌ قَرَوِيَّةٌ عَلَى دَابَّةٍ
 أَمْسَكَ بِمِقْوَدِهَا رَجُلٌ كَانَ يُبْدِي اهْتِمَامًا عَظِيمًا بِهَا .

تِلْكَ الْفَتَاةُ هِيَ مَرْيَمُ الْعِذْرَاءُ ، وَصَاحِبُهَا هُوَ ابْنُ عَمِّهَا

يُوسُفُ النَّجَّارُ، أَقْبَلَا مَعًا إِلَى أُورُشَلِيمَ ، لِيُقَيِّدَا اسْمَهُمَا فِي
سِجَلَاتِ الْحَاكِمِ ، وَلَعَلَّهُمَا أَيْضًا أَرَادَا الْإِخْتِفَاءَ عَنْ قَوْمِهِمَا خَشْيَةً
الْفَضِيحَةِ ، وَقْتَ وَلَادَةِ مَرْيَمَ .

اقْتَرَبَ الرَّكْبُ مِنْ يَنْتِ لَحْمَ ، وَشَعَرَتْ مَرْيَمُ بِمُقَدَّمَاتِ
الْوَضْعِ ، فَمَالَ يُوسُفُ بِهَا إِلَى يَنْتِ لَحْمَ ، وَأَنْزَلَهَا بِالْقُرْبِ مِنْ
كَهْفٍ كَبِيرٍ ، قَدْ اسْتَعْمَلَهُ الرُّعَاةُ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ مَرْبُطًا لِلْمَاشِيَةِ
وَالْأَغْنَامِ ، فَجَلَسَتْ مَرْيَمُ بِجِوَارِ جَذَعِ نَخْلَةٍ ، وَذَهَبَ ابْنُ عَمَّهَا
إِلَى أُورُشَلِيمَ ، لِيَسْتَأْجِرَ لَهُمَا مَكَانًا يَنْزِلَانِ فِيهِ .

بَحَثَ يُوسُفُ فِي الْمَدِينَةِ فَلَمْ يَجِدْ مَكَانًا خَالِيًا ، وَمَا كَانَ
هُنَاكَ مَكَانٌ يَصْلُحُ لِرَاحَةِ حُبْلَى فِي شَهْرِهَا الْآخِرِ ، لِكَثْرَةِ
الْوَافِدِينَ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي هَذَا الْوَقْتِ .



كَانَتْ مَرِيْمُ الْعَذْرَاءِ وَحِيدَةً هُنَاكَ بِجَوَارِ نَخْلَةٍ مُعَمَّرَةٍ ،
وَأَمَامَهَا جَدُولٌ صَغِيرٌ مِنْ الْمَاءِ الْعَذْبِ يَسْرِي مَائِهِ ، فَقَاسَتْ
مَرَارَةَ الْوَحْدَةِ وَقْتَ الْوِلَادَةِ ، وَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ
النَّخْلَةِ ، فَوَضَعَتْ ابْنَهَا الْبَكْرَ ، وَقَامَتْ إِلَى الْجَدُولِ فَغَسَلَتْهُ
وَقَمَطَتْهُ ، ثُمَّ اتَّجَهَتْ بِهِ إِلَى الْكَهْفِ ، وَفِي هَذَا الْمَكَانِ الْهَادِي
نَامَ الْمَسِيحُ تَوَمَّتُهُ الْأُولَى ، وَدَخَلَ إِلَى الْعَالَمِ بِهَذِهِ الصُّورَةِ
الْمُتَوَاضِعَةِ ، كَمَا يَدْخُلُ أَيُّ مَوْلُودٍ عَادِيٍّ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ .

اسْتَقْبَلَتْهُ السَّمَاءُ بِمَظَاهِرِ الْبَشَرِ وَالْتَرَحُّيبِ ، فَشَعَّ نُورُ اللَّهِ
عَلَى مَهْدِ هَذَا الْوَلِيدِ الْمُبَارَكِ ، وَكَانَتْ أُمُّهُ بَعْدَ هَذَا الْمَجْهُودِ
الشَّاقِّ قَدْ اسْتَسَلِمَتْ لِضَعْفِ أَلَمِ بِهَا ، فَرَأَتْ مَظَاهِرَ الْحَفَاوَةِ
وَالْتَّكْرِيمِ لِهَذَا الْمَوْلُودِ الْعَظِيمِ ، رَأَتْ ذَلِكَ الْكَوْكَبَ الَّذِي
يَتَلَأَلَأُ فِي السَّمَاءِ فَوْقَ مَهْدِ الطِّفْلِ ، وَسَمِعَتْ تَرْتِيلَ الْمَلَائِكَةِ
الَّذِينَ جَاءُوا يَحْفُونَ بِالْمَوْلُودِ ، يُسَبِّحُونَ وَيُهَلِّلُونَ وَيَهْتِفُونَ

بِالتَّحِيَّةِ لِمَوْلَدِهِ ، وَشَاهَدَتْ هَذَا النُّورَ الَّذِي انْبَثَقَ مِنَ السَّمَاءِ
إِلَى الْأَرْضِ ، يُعْلِنُ لِمَلَائِكَةِ الْبَشَرِ فَجْرَ الْخَلَّاصِ مِنْ رِبْقَةِ
الظُّلْمِ وَالْإِسْتِعْبَادِ ، وَظَلَامِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ .

أَفَاقَتْ مَرِيَمٌ مِنْ ضَعْفِهَا ، وَعَادَ إِلَيْهَا نَشَاطُهَا ، فَإِذَا طُفْلُهَا
يَنْظُرُ إِلَيْهَا نَظْرَةَ الْعُطْفِ وَالنَّسَاطِ ، وَإِذَا قَلْبُهَا مُنْفَعِمٌ
بِالدُّكْرِ يَااتِ الْأَلِيمَةِ ، وَالصُّورِ الْبَشِعَةِ ، وَإِذَا هِيَ نَهَبٌ
لِلتَّفَكِيرِ فِي سَاعَةِ لِقَاءِ أَهْلِهَا وَذَوِيهَا .

كَيْفَ تَرُدُّ عَلَى التَّهْمِ الَّتِي سَنَنَاهُ عَلَيْهَا ؟ ! ظَلَّتْ تُفَكِّرُ
فِي ذَلِكَ كَثِيرًا ، فَانْتَابَتْهَا مَوْجَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَنَكَسَتْ
رَأْسَهَا تُحَاوِلُ إِبْعَادَ هَذِهِ الْوَسَاوِسِ عَنْهَا . قَالَتْ : يَا لَيْتَنِي مِتُّ
قَبْلَ هَذَا ، وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا !! يَا إِلَهِي ! أَنْتَ عَلِيمٌ بِحَالِي ،
فَالْهَمْنِي الرَّشَادَ ، وَخَلِّصْنِي مِمَّا أَقَاسِيهِ .

كَانَتْ مَرِيَمٌ حَقًّا فِي حَيْرَةٍ شَدِيدَةٍ ، لَا تَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ
بِمَوْلُودِهَا فِي هَذَا الْمَكَانِ بِدُونِ طَعَامٍ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعُودَ
بِهِ إِلَى ذَوِيهَا فِي النَّاصِرَةِ ، وَلَا إِلَى أَقْرَبَائِهَا فِي بَيْتِ لَحْمٍ ،

فَيرْمُوها بالسُّوءِ ، وَيَقْدِفُها بِالتُّهَمِ أَشْكَالاً وَالْوَأَنَّا .
 أَظْلَمْتَ الدُّنْيَا فِي عَيْنِهَا ، وَسَاءَتْ الْحَيَاةُ أَمَامَهَا ؛ وَبَيْنَمَا
 هِيَ فِي غَمْرَةٍ مِنْ ذَلِكَ سَمِعَتْ صَوْتًا يُنَادِيهَا :
 يَا مَرْيَمُ ، لَا تَحْزَنِي ! ! قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ مَاءً سَرِيًّا ،
 وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ، فَكُلِي
 مِنَ الرُّطْبِ ، وَاشْرَبِي مِنَ الْمَاءِ ، وَتَوَكَّلِي بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ ،
 فَهُوَ نِعَمَ الْمَوْلَى ، وَنِعَمَ النَّصِيرِ .

سَمِعَتْ مَرْيَمُ هَذَا الْبُذَاءَ السَّمَاوىَّ يَتَرَدَّدُ عَلَى أُذُنِهَا ، فَكَانَ
 بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى قَلْبِهَا ، أَعَادَ إِلَيْهَا الْأَمْنَ وَالثِّقَةَ ، وَأَذْهَبَ
 عَنْهَا الْخَوْفَ وَالْإِضْطِرَابَ .

قَامَتْ مَرْيَمُ الْعَذْرَاءُ إِلَى الْجَدُولِ فَشَرِبَتْ ، وَهَزَّتْ بِجِذْعِ
 النَّخْلَةِ وَجَمَعَتْ مَا وَقَعَ مِنْهَا ، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى الطِّفْلِ وَأَشْرَقَ
 وَجْهُهَا بِمُحْيَاةٍ ، فَانْزَاخَ عَنْهَا هَذَا الْكَبُوسُ الثَّقِيلُ ، وَأَمْنَتْ
 بِقَضَاءِ اللَّهِ ، فَاسْتَسَلَمَتْ لَهُ .

أَقْبَلَ ابْنُ عَمَّاهُ يُوسُفُ النَّجَّارُ مِنْ أُورُشَلِيمَ ، وَكَانَ قَدْ

سَمِعَ حَدِيثَ النَّاسِ فِيهَا حَوْلَ ظُهُورِ النَّجْمِ الْأَكْبَرِ ،
وَتَسَاوُلَهُمْ عَنْ آيَاتِ ظُهُورِ الْمَسِيحِ الْمُتَنْظَرِ الَّذِي بَشَّرَتْ
بِهِ التَّوْرَةُ .

جَاءَ يُوسُفُ إِلَى مَرِيَمَ فِي لَهْفَةٍ وَحَسْرَةٍ ، فَوَجَدَهَا فِي أَمٍّ
صِحَّةٍ ، تَسْعَى بِخِفَّةٍ بَيْنَ مَذَاوِدِ الْمَاشِيَةِ فِي الْكَهْفِ وَيَنْبُوعِ
الْمَاءِ ، فَتَغْسِلُ الْخِرْقَ ، وَتَنْشُرُهَا عَلَى أَشْعَةِ الشَّمْسِ ، وَقَدْ
حَاها اللَّهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ ؛ فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا يَسْتَفْسِرُ عَنْ حَالِهَا ،
أَشَارَتْ إِلَى الْمَذُودِ ، فَأَسْرَعَ يُوسُفُ إِلَيْهِ ، وَوَقَفَ بَرُهَةً
يَتَأَمَّلُ فِي ذَلِكَ الْوَجْهِ الْمُشْرِقِ الْجَمِيلِ ، وَنَحْنُ نَتَصَوَّرُ مَا يَجُولُ
فِي رَأْسِ هَذَا الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْأَفْكَارِ ، بَعْدَ مَا رَأَى مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ ، وَمَا سَمِعَ مِنْ حَدِيثِ الْقَوْمِ ، فَتَعَرَّفَ السَّرَّ فِيمَا
فَعَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، حِينَما وَهَبَ كُلَّ وَقْتِهِ ، وَبَذَلَ كُلَّ جُهِدِهِ
لِرِعَايَةِ هَذَا الْوَلِيدِ الْخَارِقِ لِنَامُوسِ الْحَيَاةِ ، وَأُمِّهِ السَّيِّدَةِ
الْعَذْرَاءِ .

وَتَتَصَوَّرُهُ أَيْضًا يَعُودُ إِلَى مَرِيَمَ ، وَقَدْ نَكَّسَ رَأْسَهُ هَيْبَةً

وإِجْلَالًا لِيَسْأَلَهَا عَمَلًا يُؤَدِّيهِ ، أَوْ خِدْمَةً يُقَدِّمُهَا .
 حَقًّا ؟ إِنَّ يُوسُفَ النَّجَّارَ كَانَ رَجُلًا صَالِحًا تَقِيًّا نَبِيلاً ،
 كَشَفَ اللَّهُ عَنْ بَصِيرَتِهِ ، وَالْهَمَّةِ الْحَقِيقَةِ وَالصَّوَابِ .

وَنَحْنُ نَتَصَوَّرُ مَرِيَمَ تَقْضِي مَدَّةَ النَّفَاسِ فِي هَذَا الْمَكَانِ
 الْخَلَائِيِّ الْهَادِي ، فَتَجِدُهَا هَانِئَةً بِهِ ، وَقَدْ رَاضَتْ نَفْسَهَا
 عَلَى الْإِقَامَةِ فِيهِ ، وَكَانَ يُوسُفُ النَّجَّارُ يَذَرُغُ الْأَرْضَ كُلَّ
 يَوْمٍ بَيْنَ الْكَهْفِ وَأُورُشَلِيمَ ، حَيْثُ يَقْضِي حَوَائِجَهَا ،
 وَيَشْتَرِي لَهَا الْخُبْزَ وَالطَّعَامَ ، فَإِذَا عَادَ مِنَ الْمَدِينَةِ وَجَدَ ثَمَرًا
 كَثِيرًا ، جَادَتْ بِهِ هَذِهِ النَّخْلَةُ الَّتِي شَبَّ عُودُهَا ، وَاخْضَرَّتْ
 أَوْرَاقُهَا ، بَعْدَ أَنْ أَصَابَهَا الْكِبَرُ ، وَنَحَرَ فِيهَا السُّوسُ .

انْتَهَتْ مَدَّةُ النَّفَاسِ ، وَحَانَ مَوْعِدُ الرَّحِيلِ إِلَى الْمَدِينَةِ ،
 فَعَاوَدَ مَرِيَمَ الْقَلْقُ ، وَاتَّابَتْهَا الْوَسَاوِسُ مِنْ جَدِيدٍ .

كَانَ يُوسُفُ يُحْزِمُ الْأَمْتَعَةَ اسْتِعْدَادًا لِلرَّحِيلِ ، وَمَرِيَمَ
 غَارِقَةً فِي هُمُومِهَا وَدُعَائِهَا تَطَلُّبُ الْعَوْنِ مِنَ اللَّهِ ، فَسَمِعَتْ
 هَاتِفًا يَهْتِفُ بِهَا :

يَا مَرْيَمُ ؛ صُومِي الْيَوْمَ عَنِ الْكَلَامِ ، فَلَا تُكَلِّمِي أَحَدًا
مِنَ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يَتَوَلَّاكَ بِرِعَايَتِهِ .

كَانَ هَذَا الْهَاتِفُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَصَدَعَتْ لِلْأَمْرِ ،
وَنَذَرَتْ الصَّوْمَ ، قَالَتْ :

إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ، فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا .
لَمَّا فَرَغَ يُوسُفُ مِنْ حَزْمِ الْأَمْتَعَةِ ، سَمِعَهَا عَلَى دَابَّتِهِ ، ثُمَّ
نَظَرَ إِلَى مَرْيَمَ ، وَدَعَاَهَا لِلرُّكُوبِ ، فَرَكِبَتْ دُونَ أَنْ تُحْرِكَ
شَفَتَيْهَا بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .

اتَّجَهَتْ مَرْيَمُ بِالطِّفْلِ إِلَى جِبَالِ حَبْرُونَ ، وَجَاءَتْ بِهِ قَوْمَهَا
تَحْمِلُهُ ، قَالُوا :

يَا مَرْيَمُ ؛ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ، وَأَمْرًا مُنْكَرًا !!
سَكَتَتْ مَرْيَمُ وَلَمْ تَقُلْ شَيْئًا لِلدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا ، فَأَيَقُنُوا
أَنَّهَا ارْتَكَبَتْ خَطِيئَةً ، وَقَالُوا :

يَا أُخْتَ هَرُونَ ؛ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوِيًّا ، وَمَا كَانَتْ
أُمُّكَ بَغِيًّا .

تَكَلَّمِي وَدَافِعِي عَنِ نَفْسِكَ . كَيْفَ جِئْتِ بِهَذَا الْغَلَامِ ؟
 كَانَتْ مَرْيَمُ صَائِعَةً لَا تَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ ، فَلَمَّا أَحْوَا
 عَلَيْهَا وَكَثُرَ سُؤَالُهُمْ لَهَا : أَشَارَتْ إِلَى الطِّفْلِ لِيُكَلِّمُوهُ .
 قَالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ؟ !
 تَكَلَّمَ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ مُلْفُوفٌ فِي أَقْطِطِهِ
 فَقَالَ :

إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا
 أَيْنَمَا كُنْتُ ، وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ،
 وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّارًا شَقِيًّا ، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ
 وُلِدْتُ ، وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا .
 ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ .

